أغاثا كريستي

عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

في النّهايَة يَأتي المَوْت

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

في النّهايَة يَأتي المَوْت

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٤

ترجمة: رنا عرفات

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٤ بعنوان

Death Comes as the End

Copyright Agatha Christie Mallowan 1945

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة
٢٠٢٠

ملاحظة المؤلفة

تجري أحداث هذه الرواية على الضفة الغربية لنهر النيل قرب مدينة طيبة في مصر قبل نحو أربعة آلاف عام. ولكن الزمان والمكان كليهما ثانويان بالنسبة للقصة، إذ كان يمكن لأي مكان آخر وأي زمان أن يصلحا خلفية لها. وقد تم استيحاء شخصيات القصة وعقدتها من ثلاث رسائل مصرية تعود إلى السلالة الحادية عشرة، اكتشفتها قبل نحو عشرين عاماً البعثةُ المصرية التي أوفدها متحف الفنون في نيويورك، وقد عُثر على هذه الرسائل في ضريح صخري مقابل الأقصر وترجمها البروفسور باتيسكون غان في «مجلة المتحف».

وربما كان مفيداً أن نوضّح للقارئ أن الأوقاف التي كانت تُمنَح لطقوس «كا» الدينية (وهي ممارسة يومية في الحضارة المصرية القديمة) تشبه في جوهرها الأموال التي كانت توقف بوصية في العصور الوسطى، إذ كان يوصى بممتلكات المرء لكاهن «كا» الذي يقوم -مقابل ذلك- برعاية ضريح صاحب الوصية وصيانته وتقديم القرابين في أعياد معينة خلال السنة من أجل راحة روح الفقيد.

وتعني مفردتا «الأخ» و«الأخت» في النصوص المصرية عادة كلمتَي «حبيب» و«حبيبة»، وتتبادلان المعنى -غالباً- مع كلمتَي

«الزوج» و«الزوجة»، وقد استُعملتا بهذا الشكل في هذا الكتاب.

ويشكّل التقويمُ الزراعي لمصر القديمة (المؤلَّف من ثلاثة فصول لكل منها أربعة أشهر ولكل شهر ثلاثون يوماً) يشكل هذا التقويم خلفيةَ الحياة الفلاحية، وبإضافة خمسة أيام في نهاية العام كان التقويم الرسمي المعتمَد يتألف من سنة ذات ٣٦٥ يوماً. وكانت بداية هذا العام -في أول الأمر- تتطابق مع وصول مياه فيضان نهر النيل إلى مصر في الأسبوع الثالث من شهر تموز (يوليو) حسب تقويمنا، ولكن غياب «السنة الكبيسة» سبّب تراجع هذه البداية عبر القرون بحيث صار يوم رأس السنة الرسمي في وقت روايتنا هذه يحلّ قبل نحو ستة أشهر من بدء السنة الزراعية، أي في كانون الثاني (يناير) بدلاً من تموز (يوليو).

ولكي نعفي القارئ من مهمة العودة لاحتساب هذه الأشهر الستة في كل مرة فقد وُضعت التواريخ الموجودة في بداية كل فصل حسب مرجعيتها بالنسبة إلى السنة الزراعية، وهكذا يمتد فصل الفيضان من نهاية تموز (يوليو) وحتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، ويمتد فصل الشتاء من نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) إلى نهاية آذار (مارس)، ويمتد فصل الصيف من نهاية آذار (مارس) وحتى نهاية تموز (يوليو).

* * *

الفصل الأول

الشهر الثاني من فصل الفيضان

اليوم العشرون

وقفت رينيسنب تنظر إلى النيل، وسمعت من بعيد صوت أخوَيها يحموس وسوبك يتناقشان حول السدود وحاجتها إلى تدعيم وتثبيت في بعض الأماكن.

كان صوت سوبك عالياً وواثقاً كالمعتاد، وكان من عادته تأكيد وجهات نظره بثقة بسيطة. أما صوت يحموس فكان خافتاً مدمدماً في نبرته، ينم عن الشك والقلق.

كان يحموس هو الابن الأكبر في العائلة، وكان في حالة قلق دائم تجاه هذا الأمر أو ذاك، وأثناء غياب والده في الولايات الشمالية كانت أمور المزارع في يده، لكنه كان بطيئاً في سلوكه، طويل الأناة والتدبير، ميّالاً لتخيل الصعوبات حيث لا توجد صعوبات. وكان ضخم الجثة بطيء الحركة ولا يملك مرح سوبك وثقته.

وتذكرت أنها اعتادت على سماع أخويها هذين يتجادلان بالطريقة ذاتها منذ طفولتها المبكرة، وجعلها هذا تشعر فجأة بالأمان

لأنها في بيتها من جديد. أجل، لقد عادت إلى بيتها.

ومع ذلك فقد جاشت في صدرها مشاعر الثورة والألم وهي تنظر ثانية إلى النهر الشاحب اللامع، فقد مات زوجها الشاب خاي ذو الوجه الضاحك والكتفين القويين. إنه الآن مع أوزيريس في مملكة الموتى، بينما تُركت هي، زوجته المحبة المخلصة، وحيدة. لقد أمضيا معاً ثمانية أعوام بعدما تزوجته وهي لمّا تَزَلْ طفلة، وها هي الآن تعود أرملة مع ابنته تيتي إلى بيت أبيها.

وشعرت في تلك اللحظة كأنها لم تخرج من هذا البيت قط، ورحّبت بتلك الفكرة! سوف تنسى تلك الأعوام الثمانية المليئة بالسعادة اللاهية التي مزقها ودمرها الألم وفقدان الأحبة. نعم؛ ستنساها وتخرجها من عقلها، لتعود مرة أخرى رينيسنب ابنة إمحوتب الكاهن التي لا تفكر ولا تهتم.

إن زوجها الآن محنط ملفوف بالملاءات ومحاط بالتعاويذ. لن يكون خاي في هذا العالم بعد اليوم كي تبحر معه في النيل وهو يصطاد السمك ويضحك للشمس، بينما تستلقي هي في القارب تداعب ابنتها تيتي الصغيرة في حضنها وتستمتع بحديث زوجها وضحكاته.

ثم عاودت رينيسنب حديثها الأول: لن أفكر في هذا... لقد انتهى. إنني الآن في المنزل، وكل شيء على ما كان عليه من قبل، وأنا أيضاً سأكون كما كنت سابقاً. لقد نسيَت تيتي الأمر، وها هي ذي تضحك وتلعب مع الأطفال الآخرين.

وسلكت طريقَها عائدة إلى البيت تعترضها قوافل الدواب

المحملة المتجهة إلى النهر، ومرّت بمخازن الحنطة وبيوت العمال وعبرت الباب الرئيسي إلى فناء البيت. وجدته جميلاً كما تركته: البحيرة الصناعية تحيط بها أزهار الدفلى والياسمين وتظللها شجرة الجميز، والأطفال يملؤون المكان ضجة وحركة وحيوية.

ولاحظت رينيسنب أن تيتي تلعب بأسد خشبي يفتح فمه ويغلقه بجرة خيط... إنها اللعبة التي أحبتها هي عندما كانت صغيرة.

وتفكرت مرة أخرى بامتنان: لقد عادت إلى المنزل ولم يتغير شيء، باستثناء أن تيتي هي الطفلة الآن بينما هي إحدى الأمهات الكثيرات بين جدران هذا البيت. إذن لم يزل الإطار ثابتاً لم يتغير، وهو جوهر الأشياء.

وتدحرجت كرة يلعب بها الأطفال إلى أسفل قدميها، فتناولتها وأعادتها إليهم وهي تضحك. ومضت إلى الشرفة بأعمدتها الملونة الزاهية، ثم دخلت إلى المنزل ومرت بالغرفة الرئيسية وعلى جنباتها الخس والخشخاش، ثم أوت إلى أجنحة النساء.

وتناهت إلى مسامعها الأصوات القديمة المألوفة: أصوات ساتيبي وكيت تتجادلان كعادتهما. ساتيبي زوجة يحموس مستبدة وقاسية، طويلة ونشيطة وجميلة، حادة اللسان تُرعب الخدم والصبية وتتكلم بثقة وتسلّط وتجد في كل شيء عيباً، ويخافها الجميع ويحذرون لسانها السليط.

كان يحموس معجباً بزوجته الحازمة، مع أنه كان يسمح لها بالسيطرة عليه بطريقة تثير غضب رينيسنب. وعندما كان يتوقف صوت ساتيبي المرتفع كان يُسمَع صوت كيت، زوجة سوبك الوسيم

المرح، وكان صوتاً هادئاً وعنيداً... وهي تهرب من جدال ساتيبي بجملة بسيطة هادئة تكررها بعناد وإصرار دون غضب أو انفعال.

كانت كيت بسيطة عادية المظهر محدودة الأفق، تكرس حياتها لأطفالها ولا تكاد تفكر في شيء آخر. وكان سوبك يحب زوجته ويتحدث معها بحرّية عن أموره كلها، وهو متأكد أنها تستمع إليه، وهي تصرح بموافقتها أو اعتراضها ولا تتذكر أياً من الأمور المزعجة لأن عقلها يفكر طول الوقت في مشكلة تتعلق بالأطفال.

صرخت ساتيبي: هذا فظيع! لو أن يحموس يملك بعض الشجاعة لما قبل بهذا. مَن المسؤول هنا في غياب إمحوتب؟ يحموس! وبما أنني زوجة يحموس فأنا التي يجب أن أختار الفرشات والوسائد أولاً. ينبغي لهذه الخادمة...

قاطعها صوت كيت العميق: لا، لا يا صغيرتي؛ لا تأكلي شعر اللعبة. هاك شيئاً أفضل... حلوى، آه! كم هو لطيف.

- أما أنت يا كيت فلا تتمتعين بأي قدر من اللباقة ولا تستمعين لما أقول ولا تجيبينني... إن تصرفاتك مشينة.

- الوسادة الزرقاء كانت دائماً لي. آه، انظري إلى أنخ الصغيرة، إنها تحاول المشي.

- أنت غبية كأطفالك يا كيت، ولكنك لن تفلتي بهذه السهولة. سأحصل على حقوقي، وسوف ترين.

جفلت رينيسنب عندما أحست بوقع أقدام خفيفة خلفها، وراودها ذلك الشعور القديم بالكره لدى رؤيتها حينيت تقف

خلفها. وانفرج وجه حينيت النحيل عن ابتسامة متملقة وقالت: لعلك تفكرين بأن الأمور لم تتغير كثيراً يا رينيسنب. لا أعلم كيف نحتمل جميعاً لسان ساتيبي... كيت تستطيع أن ترد عليها ولكننا لسنا جميعاً محظوظين مثلها. إنني أعمل وأقدم العون هنا وهناك ولا أجد شكراً ولا تقديراً من أحد سوى والدك الذي قدم لي المأوى والطعام والثياب. لم يعد أحد يحترمني بعد أمك، فهي وحدها كانت تقدرني وتحترمني في هذا البيت. كانت امرأة جميلة، وقد أوصتني وهي تُحتضَر بأن أعتني بكم. وقد وفيتُ بوعدي وأدّيت واجبي فخدمتكم جميعاً، ولم أكن أريد الشكر على ذلك.

ثم انسلّت كالسمكة من تحت ذراع رينيسنب ودخلت الغرفة الداخلية، حيث تدخلت في حوار الكنتين قائلة: بشأن تلك الوسائد يجب أن تعذريني يا ساتيبي، ولكنني سمعت سوبك يقول...

ابتعدت رينيسنب، وجاشت كراهيتها القديمة لحينيت. عجيب كيف يكره الجميع هذه المرأة! كان ذلك بسبب صوتها النائح واستدرارها المستمر للشفقة على نفسها والمتعة اللئيمة التي تجدها أحياناً في تسعير أوار المهاترات.

وفكرت رينيسنب قائلة لنفسها: حسناً، ولِمَ لا؟ إنها طريقة حينيت بالتسرية عن نفسها، فلا بد أن حياتها قاحلة كئيبة، وكان صحيحاً أنها تعمل بلا كلل ولا ملل وأن أحداً لا يبدي لها أي امتنان. ليس بوسع المرء أن يكون ممتناً لحينيت، فهي تجذب الانتباه إلى مزاياها الخاصة بطريقة فيها من الإصرار والإلحاح ما يثبط استجابة كريمة يمكن أن يحس بها المرء تجاهها.

وفكرت رينيسنب أن حينيت كانت واحدة من أولئك الناس الذين كُتب عليهم أن يتعلقوا بالآخرين ويخلصوا لهم دون أن يكون لديهم من يتعلق بهم أو يخلص لهم!

لم تكن حينيت جذابة فينظر المرء إليها، وقد كانت غبية أيضاً، لكنها تعرف دائماً ما يدور من أمور مهما تكن خفية، فطريقة مشيتها التي لا تُسمَع وأذناها الحادتان وعيناها المتلصصتان السريعتان... هذه كلها تجعل أي سر من الأسرار أمام فضولها هيناً. وكانت تحتفظ بما عرفته لنفسها في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تتنقل بما عرفته من شخص لآخر، تهمس ثم تقف لتراقب من بعيد. لا بد أنها تحيا حياة رهيبة مروعة.

لم يبق أحد في المنزل إلا وتوسّل إلى إمحوتب في وقت من الأوقات كي يتخلص من حينيت، لكنه رفض بإصرار. كان هو الشخص الوحيد الذي يحبها ويقف إلى جانبها، وكانت هي تردّ إحسانه هذا بإخلاص يثير اشمئزاز أفراد العائلة جميعاً.

ووقفت رينيسنب وهي مترددة تستمع إلى الجلبة المتزايدة التي تثيرها زوجة أخيها التي ازدادت حدتها بسبب تدخل حينيت، ثم مشت ببطء نحو الغرفة الصغيرة، مقر جدتها إيزا. كانت إيزا وحدها تتحدث مع جاريتين تقومان بخدمتها، وكانت مشغولة بأثواب من الكتان تعرضها عليها الجاريتان وهي توبخهما بطريقة محببة لطيفة.

أجل؛ إن الأمور كما هي. ووقفت رينيسنب تستمع دون أن ينتبه إليها أحد. لقد تضاءل جسم إيزا العجوز قليلاً، لكن صوتها كما هو والأشياء التي تقولها هي هي، كلمة كلمة، كما تركتها رينيسنب

قبل أن تغادر منذ ثماني سنوات.

ومن غير أن تلحظها العجوز أو الجاريتان تسللت رينسينب مرة أخرى إلى المطبخ المفتوح حيث رائحة البط المشوي والحديث والضحك والتوبيخ وكومة من الخضار تنتظر الإعداد، ووقفت وعيناها مغمضتان. كانت تستطيع -من حيث تقف- أن تسمع كل ما كان يدور في آن واحد: الأصوات العالية في المطبخ، ونبرة صوت إيزا العجوز العالية، وصوت ساتيبي الحاد، ونغمة كيت الهادئة العميقة الملحّة... خليط من الأصوات النسائية تثرثر، وتضحك، وتتذمر، وتوبخ، وتهتف...

وفجأة شعرت رينيسنب أنها تختنق في هذا الصخب النسوي المتواصل. نساء مزعجات صاخبات، أيُّ منزل مليء بالنساء لا يكون أبداً هادئاً أو آمناً، دائماً يتحدثن ويهتفن ويقلن أشياء ويكتفين بالأقوال دون الأفعال!

أين خاي الصامت الذي يجلس مراقباً في قاربه وعقلُه ساهم ينتظر مع رمحه السمكةَ بصبر بعيداً عن كل هذه الثرثرة والقيل والقال؟

وخرجت بسرعة من المنزل مرة أخرى إلى الفناء الهادئ، فرأت سوبك عائداً من الحقل ورأت يحموس من بعيد يصعد إلى الضريح، فدارت مبتعدة وسارت في الطريق المؤدي إلى المنحدر الصخري حيث ضريح ميريبتاح العظيم الذي يعمل أبوها كاهناً فيه يحرسه ويعتني به. وكانت كل العقارات والأرض جزءاً من وقف الضريح، وعندما يغيب والدها فإن واجبات الكاهن كافة تلقى على كاهل أخيها يحموس.

وعندما وصلت رينيسنب وهي تصعد المنحدر الحاد ببطء كان يحموس يتشاور مع حوري، مساعد والدها، في الغرفة الصخرية الصغيرة بجوار غرفة قرابين الضريح.

كان حوري يَسُط على ركبتيه لفافة بَرْدِيّ ينظر فيها مع يحموس، وابتسم يحموس وحوري لرينيسنب عندما وصلت وجلست بالقرب منهما في الظل. كانت تحب أخاها يحموس الرقيق العطوف المعتدل. وحوري - أيضاً - كان دائماً لطيفاً مع رينيسنب الصغيرة وكان يصلح لها ألعابها أحياناً، ووجدته كما تركته: شاباً وقوراً صامتاً يتقن أعمال الكتابة والحساب. لعله كبر قليلاً.

كان يحموس وحوري يتهامسان: ثلاثة وسبعون قنطاراً من الشعير، وآيبي الأصغر...

- إذن فإن المجموع مئتان وثلاثون من الحنطة ومئة وعشرون من الشعير.

- أجل، لكن يبقى ثمن الخشب والمحصول الذي دُفع بدلاً للزيت في بيرحا.

تابعا حديثهما، وجلست رينيسنب وقد غلبها النعاس وهي راضية بصوت الرجلين الهامسين. ثم نهض يحموس فذهب وقد سلم ورقة البردي إلى حوري، وجلست رينيسنب بصمت فأمسكت ورقة البردي وسألت حوري: هذه من أبي؟ ماذا يقول؟

وفضّت الورقة وحدقت إلى تلك العلامات التي لم تكن تفقه معناها، فابتسم حوري وانحنى وأخذ يتبع أصابعه وهو يقرأ. كانت

الأحرف مصفوفة بطريقة منمّقة تدل على أسلوب كاتب الرسائل المحترف في هيرا كليوبوليس.

– يقول الكاهن إمحوتب خادم ضريح النيل العظيم: أضرع إلى الله أن تكون حالكم كحال أولئك الذين يعيشون ملايين المرات، وليسعد الإله بتاح قلوبكم. ويدعو لوالدته إيزا بالأمن والصحة والعافية ولأهل البيت جميعاً. ثم يتابع: إلى ولدي يحموس: كيف هي أحوالك؟ أهي آمنة مليئة بالصحة والعافية؟ اعمل بهمة وكدّ قدرَ استطاعتك. ابذل أقصى جهدك واحفر الأرض بجد كي أدعو الآلهة أن تساعدك.

ضحكت رينيسنب وقالت: مسكين يحموس! إنه يعمل بجد، أنا واثقة من ذلك.

نصائح أبيها جعلته يتراءى أمام عينيها، بأسلوبه البهيج المزعج قليلاً وبتحذيراته وتعليماته المستمرة. وأكمل حوري: اعتن جيداً بابني آيبي، فقد سمعت أنه ليس راضياً. وتأكد أيضاً أن ساتيبي تعامل حينيت معاملة حسنة، واكتب لي عن الكتان والزيت، واحرس محصول القمح، احرس كل شيء، فإن أهملت فسأحمّلك المسؤولية، وإن أغرقت أرضي فويلٌ لك ولسوبك!

فرحت رينيسنب وقالت: أبي لا يزال كما هو؛ يظن أنه إن كان غائباً فإن أي شيء لن يُنفَّذ بالطريقة الصحيحة.

ثم أفلتت لفافة البردي فعادت تلتفّ على بعضها كالأسطوانة. وقالت بلطف: كل شيء لا يزال على حاله.

لم يجبها حوري. التقط ورقة البردي وبدأ يكتب، وراقبته رينيسنب صامتة راضية، ثم قالت كأنها تحلم: جميلة هي الكتابة على ورق البَردي! لماذا لا يتعلم الجميع؟

- ليس هذا ضرورياً.

- ربما، ولكن الكتابة شيء جميل.

- أتظنين ذلك يا رينيسنب؟ ماذا عسى أن تحقق لك الكتابة؟

فكرت رينيسنب لحظات ثم قالت ببطء: لا أعرف.

قال حوري: في الوقت الحاضر تحتاج المقاطعة الواسعة عدداً قليلاً من الكتّاب، لكنني أتخيل أن يوماً سيأتي يكون فيه جيش من الكتَبَة في مصر.

- سوف يكون هذا أمراً جيداً.

- لست واثقاً من ذلك.

- لماذا؟

- سهلٌ جداً أن يدوّن الإنسان مكاييل الحنطة والشعير وعدد قطعان الماشية والأغنام، ويظن الناس أن كتابة الشيء مثل حيازته، وهكذا يحتقر الكاتب الفلاح الذي يحرث الحقول ويحصد الشعير ويرعى القطيع... ولكن كل تلك الحقول والمواشي هي حقيقية لا علامات ورموز تدوَّن على البردي فقط، وعندما تَتْلف السجلات وورق البردي وتتبعثر المخطوطات فإن الرجال الذين يكدحون ويحصدون سوف يستمرون في عملهم لتبقى مصر.

نظرت إليه رينيسنب بانتباه وقالت ببطء: نعم، أدرك ماذا تعني؛ الأشياء التي نستطيع أن نراها ونلمسها ونأكلها هي الأشياء الحقيقية، أما أن تكتب: "لديّ مئتان وأربعون صاعاً من الشعير" فلا يعني شيئاً ما لم تكن تملك الشعير حقاً... ربما يسجل المرء الأكاذيب والأوهام.

ابتسم حوري لمنظر وجهها الجاد، وقالت هي فجأة: لقد أصلحت الأسد الخشبي الذي كنت ألعب به قبل مدة طويلة. أتذكر؟

- نعم يا رينيسنب، أذكر.

- تيتي تلعب به الآن. عندما ذهب خاي إلى أوزيريس حزنتُ كثيراً، ولكنني عدت الآن إلى المنزل حيث كل شيء لا يزال كما هو، وسأكون سعيدة بذلك.

- أتظنين ذلك حقاً؟

نظرت إليه رينيسنب وسألت بحدّة: ماذا تعني يا حوري؟

- أعني أن هناك دائماً تغيراً، فثمانية أعوام هي ثمانية أعوام.

قالت رينيسنب بثقة: لا شيء يتغير هنا.

- بل يجب أن يتغير كل شيء، هكذا هي الحياة.

- أريد أن يبقى كل شيء على حاله.

- لكنك أنت لست رينيسنب التي ذهبَتْ مع خاي.

- بل إنني هي نفسها، وإن لم أكن كذلك فسوف أكون كذلك بسرعة.

هز حوري رأسه قائلاً: لا يمكنك العودة يا رينيسنب، فالحياة مثل حساباتي هنا: آخذ النصف وأضيف إليه ربعاً ثم عُشراً، فيتغير المحصول باستمرار.

- ولكنني أنا رينيسنب لا المحصول!

- هناك أمور أضيفت إلى رينيسنب طوال الوقت، وهكذا فإن رينيسنب صارت مختلفة بمرور الوقت.

- لا، لا. أنت حوري القديم نفسه.

- ربما تظنين ذلك، ولكنه ليس صحيحاً.

- بلى، بلى. ويحموس لا يزال كما هو؛ قلق دائماً ومتلهف وتسيطر ساتيبي عليه كما كانت من قبل، وهي تتشاجر مع كيت كالمعتاد حول الفرشات والأسرّة، وعندما أعود سأجدهما تتضاحكان معاً كأفضل صديقتين! وحينيت لا تزال تتسلل وتستمع وتتذمر وتتحدث عن إخلاصها وتفانيها، ولا تزال جدتي تثير الجلبة مع خادمتها بشأن ملابس الكتان... كل شيء لا زال كما كان في السابق، وسيرجع والدي إلى المنزل وتكون جلبة كبيرة، وسوف يقول: "لِمَ لم تفعلوا ذلك؟" و"كان يجب أن تفعلوا ذلك"... ويحموس سيبدو قلقاً، أما سوبك فسوف يضحك ويكون وقحاً، وسوف يدلّل أبي آيبي الذي يبلغ الآن السادسة عشرة كما كان يفعل وهو في الثامنة... ولن يختلف شيء!

سكتت رينيسنب وقد تقطّعت أنفاسها، فتنهّد حوري وقال بلطف: أنت لا تفهمينني يا رينيسنب. هناك أنواع من الشر تأتي من

الخارج وتهاجم بشكل عاصف يراه العالم كله، ولكن هناك نوعاً آخر من التعفن الذي ينمو في الداخل دون أن يُبدي أية علامة خارجية. ينمو ببطء يوماً بعد يوم، حتى تصبح الثمرة كلها متعفنة في النهاية وقد أتى عليها المرض تماماً.

حدقت رينيسنب إليه. كان يتحدث وهو شارد كأنه غائب عن الدنيا، كأنه لم يكن يتحدث إليها بل إلى نفسه. صرخت: ماذا تعني يا حوري؟ أنت تخيفني.

- وأنا خائف بالفعل.

- ماذا تعني؟ ما الشر الذي تقصده؟

نظر إليها وابتسم فجأة قائلاً: انسي ما قلته يا رينيسنب. كنت أفكر في الأمراض التي تهاجم المحاصيل.

فتنهدت رينيسنب وقالت بارتياح: أنا سعيدة. لقد ظننت... لا أعلم ماذا ظننت.

* * *

الفصل الثاني

الشهر الثالث من فصل الفيضان

اليوم الرابع

-١-

كانت ساتيبي تتحدث مع يحموس وصوتها مرتفع كشأنها دائماً: يجب أن تفرض على الآخرين احترام حقوقك، فلن يحترموك إلا إذا فعلت ذلك. والدك يقول: "اعمل كذا ولا تعمل كذا ولماذا لم تعمل كذا؟" وأنت تسمع خانعاً ثم تقول: "نعم" وأنت تعلم أنه يطلب المستحيل. إنه يعاملك كطفل في عمر آيبي وكأنك لست أهلاً للمسؤولية!

أجابها يحموس بهدوء: أبي لا يعاملني أبداً كما يعامل آيبي.

- إنه غبي في تعامله مع آيبي، ذلك الطفل المدلل لا يحسن شيئاً سوى أن يمشي متباهياً لأنه يعلم أن والده منحاز إليه. يجب أن تضع أنت وسوبك حداً لذلك.

رفع يحموس كتفيه بيأس قائلاً: وما الفائدة؟

صرخت به قائلة: سيصيبني خنوعك هذا بالجنون! أنت جبان مثل امرأة، توافق أباك في كل ما يقوله!

- أنا أحب أبي حباً عظيماً.

- نعم، وهو يستغل ذلك. يجب أن تتصرف مثل سوبك؛ إنه لا يخاف أحداً ولا يعتذر عن أخطاء ليست أخطاءه.

- لكن والدي يثق بي أكثر من سوبك ويَكِلُ إليّ المسؤوليات كلها لا إلى سوبك.

- لذلك يجب أن تكون شريكاً لأبيك بصورة قانونية، فأنت تمثله في غيابه في المعبد والحقول، ومع ذلك فأنت لا تملك سلطة معترَفاً بها. ينبغي الوصول إلى تسوية مناسبة، فأنت الآن رجل في منتصف عمرك وليس معقولاً أن تعامَل كأنك طفل مراهق.

- أبي يحب أن تكون السلطة كلها بيده.

- يسعده أن يكون الجميع عالة عليه ليتفضل عليهم. عندما يأتي المرة القادمة يجب أن تحدثه بصراحة وتطلب تفويضاً موثقاً ويكون لك شأن معروف.

- لن يستمع إليّ.

- يجب أن تجعله يستمع. آه لو كنت رجلاً! لو كنت مكانك لعرفت ماذا أفعل. أشعر أحياناً أنني متزوجة حشرة ضعيفة.

احمرّ وجه يحموس وقال: سأرى ما أستطيع أن أفعل. ربما، نعم؛ ربما أتحدث معه وأطلب...

- لا تطلب، بل طالب! لا أحد سواك يمكنه أن يعتمد عليه، يجب أن يدرك هذا. سوبك متهور، وآيبي صغير.

- ربما يعتمد على حوري.

- لكنه ليس من العائلة. إنني أفهم كيف تسير الأمور، لكنك متردد وذليل ليس في عروقك دم، هل تفكر في أطفالنا؟ إذا لم تفكر في زوجتك فلن تحصل على مركز مناسب قبل وفاة والدك.

- سأتكلم مع أبي عندما يعود، هذا وعد.

- وكيف ستتكلم؟ كرجل أم كفأر؟

-٢-

كانت كيت تلاعب طفلتها الصغيرة التي تحاول أن تمشي وتشجعها بكلام ضاحك وتمد لها ذراعيها وتحاول أن تعرض هذا الإنجاز أمام زوجها، لكنها أدركت فجأة أنه شارد يفكر وجبهته الوسيمة متجعدة بعبوس وتجهم، فهتفت به: سوبك، أنت لا تنظر إلى آنخ وهي تمشي؟ اضربي والدك يا آنخ، أخبريه أنه سيّئ.

ردّ سوبك غاضباً: لديّ أشياء أخرى أكثر أهمية أفكر فيها.

قالت كيت وهي تحاول تخليص شعرها من يد آنخ: ما الذي يقلقك؟

كانت تتحدث بغير اهتمام كبير، وكان السؤال بطريقة آلية لا تفكر فيها.

- أبي لا يثق بي؛ إنه يصرّ على أن يفرض أوامره ولا يقبل شيئاً يخالف فكرته، ويحموس شخصيته ضعيفة لا يقف بجانبي بل ينفذ تعليمات أبي بدقة وخنوع.

كانت كيت تهز رأسها بين فترة وأخرى بينما تداعب ابنتها وتقول: نعم، هذا صحيح؛ أنت محق.

ويستمر سوبك بعد كل لحظة استراحة تؤكد فيها كيت صواب رأيه وتوافقه تماماً: يجب أن يدرك أنني شاب شجاع فيعتمد عليّ ويفوضني. سوف أخبره عندما يعود بأنني اعتمدت على تقديري في اختيار الكتان بدلاً من الزيت كثمن للخشب.

- نعم، أنت شجاع وذكي يا سوبك.

- فإن أصرّ على رأيه فسوف أترك البيت وأذهب بعيداً. إنني متأكد من أنه سيصرخ غضباً: "لقد أخبرتك أنْ تبادل بالزيت لا بالكتان؛ أنت صبي غبي لا تفقه شيئاً"! كم يظن عمري؟ ألا يدرك أنني رجل في عنفوان الشباب وأنه كبر وهرم ويجب أن يتقاعد؟ يجب أن يدرك أن العمل يحتاج إلى مغامرة وشجاعة، فالثراء لا يتحقق بلا مخاطرة.

قالت كيت باهتمام هذه المرة: لا يا سوبك، لا تفعل ذلك.

- ماذا تعنين يا كيت؟

سألها باهتمام وقد لاحظ تغيراً في نبرة صوتها جعله يحس أنها حاضرة تفكر لا كما تعوّدها مسايِرةً موافِقةً حتى إنه كثيراً ما ينساها.

- لا تكن غبياً. كل الأراضي والحقول والقطعان لوالدك، وحين يموت ستكون لنا، وستستقل بحصتك، ولكن إذا تركته الآن فربما يجوع أطفالك.

نظر إليها سوبك وضحك بدهشة قائلاً: المرأة دائماً مفاجئة. أنت قوية جداً؛ لم أعرف من قبل أنك تضمرين كل هذه الأفكار!

- لا تخاصم أباك، أرجوك؛ كن حكيماً واصبر!

- ربما تكونين محقة. هل تحبين أبي يا كيت؟

لم تُجِب كيت، بل انحنت إلى الطفلة التي تحاول أن تمشي وقالت: تعالي يا حبيبتي، خذي لعبتك هذه... تعالي.

-٣-

وقف آيبي، الولد المراهق، أمام جدته مستاءً ضَجِراً. كانت توبّخه بحدّة وترميه بنظرات قاسية من عينيها اللاذعتين رغم أنهما لا تبصران إلا قليلاً: ما هذا الذي أسمعه؟ تريد أن تفعل ولا تريد أن تفعل، وتريد أن تعتني بالثيران ولا تريد أن تذهب مع يحموس؟ لا يجوز أن يختار طفل مثلك ما يريد أن يفعله وما لا يريد.

- أنا لست طفلاً ويجب أن أعامَل كرجل؛ لا أحب أن أسمع أوامر من أحد ولا أقبل ذلك.

- ولكن أخاك يحموس هو المسؤول.

- من يظن يحموس نفسه؟ إنه غبي بليد، وسوبك غبي أيضاً

وإن كان يتفاخر دائماً بذكائه. أنا أذكى منهما، وأبي قال في رسالته بأن أختار العمل الذي أريده.

- وأنت لا تختار شيئاً.

- وأنه يجب أن أنال مزيداً من الطعام والشراب، وأنه إذا عرف أنني غضبت فلن يقبل ذلك.

- أنت ولد سيّئ، وسأخبر إمحوتب بذلك.

ابتسم آيبي بمكر وقال: لا يا جدتي، لن تفعلي.

ثم اقترب منها يلاطفها قائلاً: أنا وأنت -يا جدتي- وحدنا لدينا عقل في هذه العائلة.

- هذه وقاحة.

- أبي يعتمد على رأيك؛ إنه يعرف أنك حكيمة.

- لست بحاجة لأن تخبرني بهذا.

ضحك آيبي وقال: يحسن بك أن تكوني إلى جانبي يا جدتي.

- ما هذا الحديث الذي أسمعه عن الجوانب؟

- إن أخويّ غير راضيين. أنت تعرفين دون شك، فحينيت تخبرك بكل شيء. إن ساتيبي تلقي بخطبها على يحموس صباح مساء وحيثما أمسكت به، كما أن سوبك جعل نفسه أضحوكة في صفقة الأخشاب التي باعها، وهو خائف من غضب أبي عندما يكتشف ذلك. هل تدركين ذلك يا جدتي؟ بعد بضعة أعوام سأكون أنا الذي

أرافق أبي وأشاركه عمله، وسيفعل عندها كل ما أطلبه منه.

- أنت؟ أصغر فتيان الأسرة؟!

- وما علاقة العمر بذلك؟ إن أبي هو الذي يمتلك السلطة وأنا الوحيد الذي يعرف كيف يتدبر أمر والده!

- هذا كلام شرير.

- أنت لست غبية يا جدتي، فأنت تعلمين أن أبي ضعيف وإن كان لسانه سليطاً.

سكت عن الحديث عندما لاحظ أن جدته تحولت بنظرها إلى مكان آخر، وحين نظر رأى حينيت واقفة. قالت: إذن فإن إمحوتب ضعيف! لن يكون سعيداً حين يعرف أنك تزعم هذا.

ضحك آيبي بسرعة مرتبكاً وقال: ولكنك لن تخبريه يا حينيت، عزيزتي حينيت! هل تعدينني؟

رفعت صوتها المنتحب: بالطبع لن أقول شيئاً، فلا أريد أن أكون سبباً في مشكلة. لقد كرست حياتي لكم جميعاً، أنا لا أنقل كلاماً...

- كنت أمازح جدتي، هذا كل ما في الأمر. وسأخبر أبي بما قلته ولن يصدق أنني قلته جاداً.

خرج من الغرفة مسرعاً، ونظرت حينيت إليه وقالت لإيزا: إنه ولد وسيم جذاب ويتكلم بجرأة رائعة!

- إنه يتكلم بأشياء خطيرة، وأنا لا أرتاح لأفكاره. يبدو أن ابني

يبالغ في تدليله... أنا قلقة يا حينيت.

- ما الذي يقلقك يا سيدتي؟ سيعود السيد قريباً وتكون الأمور كلها على ما يرام.

- وهل تكون كذلك حقاً؟

وصمتت قليلاً ثم أضافت تقول: هل حفيدي يحموس في المنزل؟

- رأيته قادماً قبل لحظات.

- أخبريه أنني أريد محادثته.

غادرت حينيت فوجدت يحموس عند الشرفة الباردة المنعشة ذات الأعمدة الجميلة، فأبلغته رسالة إيزا. وأطاع يحموس أمر جدته فوراً.

قالت إيزا بسرعة: يحموس، سوف يكون إمحوتب هنا قريباً.

أشرق وجه يحموس وقال: سيكون هذا حدثاً سارا.

- هل هيأت له كل شيء؟ هل ازدهرت الأعمال؟

- لقد نفذت أوامر والدي كما فهمتها.

- ماذا بشأن آيبي؟

- تنهد يحموس وقال: إن والدي يسرف في تدليله، وهذا لا يناسب الفتى.

- يجب أن توضح ذلك لإمحوتب.

تردد يحموس فقالت إيزا بحزم: سوف أؤيدك وأدعمك.

- سيكون كل شيء على ما يرام عندما يعود والدي، ويمكنه أن يصنع ما يراه. لا أستطيع أن أتصرف كما أريد في أثناء غيابه، فأنا مجرد مندوب ولا أملك السلطة.

- أنت ابن جيد ومخلص وعطوف وزوج جيد. أحببتَ زوجتك وقدمت لها المنزل والطعام واللباس والزينة، ولكن عليك أن تمنعها من السيطرة.

نظر يحموس إليها واحمرّ وجهه ثم دار مبتعداً.

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com